

الزعة التكنولوجية رحلات في دروب العقلية البروميثيوسية (بزوغ فلسفة موت

الواقع وتدشين عوالم الزوال المتجدد)

Technologicalism: Journeys in the Paths of the Promethean Mindset (The Emergence of the Philosophy of the Death of Reality and the Inauguration of Worlds of Renewed Demise

فطيمة معافة*

¹ جامعة الحاج لخضر باتنة 1، (الجزائر)، Fatima.Maafa@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2025/10/16 تاريخ القبول: 2026/02/15 تاريخ النشر: 2026/04/12

ملخص:

تهدف هذه الدراسة الى الوقوف على أبرز مسارات الزعة التكنولوجية وتطبيقاتها التقنية التي لامست العمق الانطولوجي للحضارة الغربية، والتي كانت سبباً في تكتو تقنيا جامحا مس كافة مبادئ وأسس الواقع الغربي، ما أدى الى احداث قلب جذري في الواح قيم هذا العصر، والذي تغيرت معه تصوراتنا العامة للمفاهيم الأساسية: الانسان، الحقيقة، اليقين، الواقع، التي طالما نالت مشرب ذاتها من قوة صلاية اليقين والحق الفلسفي الثابت، واعادة تعريفها وفقا لنموذج دينامية الثورات التكنولوجية المعاصرة، ولتسارعها المصطنع، بغية تحقيق التحسين والتطور المنشودين. إلا أن زيادة العتاد التكنولوجي للعالم والاحتكام فقط لمنطقه العلموي المجرد من كافة الرهانات الاخلاقية كان جسر عبور نحو اختناق الانسانية لا انعتاقها، فاستغرق الانسان الغربي في النزوع التطرفي للعلم الحديث والمضي في دروبه الضيقة والتي لم تكن الا تمزيقا صريحا لأواصر الزعة الانسانية، تقدم لنا ذاتها كنموذج حي ينطق بعمق الانسداد الذي بلغه العقل الغربي، والذي اختمرت في ثناياه الأنطولوجية تأزمات راهته، بفعل ضياع هوية الانسان الحقبة في مرايا مشروع ما بعد الانسان .

كلمات مفتاحية: أفول الواقع، تدجين الكينونة، الانسانية المتحولة، بروميثيوس محتضرا

Abstract:

This study aims to identify the most prominent paths of technological tendency and its technical applications that touched on the ontological depth of the West, which led to a complete change in our existential systems - man, truth, certainty, reality - which have always acquired the strength of the solidity of fixed certainty and redefined it according to the model of contemporary technological leaps. However, the leadership of the world's technological equipment was a bridge towards suffocating humanity, not emancipating it.

Keywords: The decline of reality, Domestication of being, Transhumanism, Prometheus dying.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

تقف الانسانية اليوم أمام عصر رقمي بامتياز، عصر تكنولوجي ارتاد مشاهد العالم واعتلى رأس واقعه، هذا الأخير الذي تم اعادة فهرسته وفقا لنموذج تكنوتقني كصناعة تكنولوجية فائقة التنشئة والابداع، والذي لم يتوانى مطلقا في استمداد استمرارية فاعلياته اللامتناهية من خلال الاحتكام لمنطق الفتوحات العلمية المتنامية، ولحتمية دينامية أبحاثها التي لا تعرف معنى للثبوت، ولقفزاتها المبهرة التي خطت منحنى آخر للحياة العامة، وليومياتها التي عهدت في سالف الأزمنة نمطا مبسط التوصيفات، بعيدا نوعا ما عن التعقيدات، التي أصبح ينطق بها لسان حال هذا العصر، كان لهذا المنحنى المتجدد أن يجد تحققه الفعلي في المسارات الما بعدية للحدثة الأوروبية، والتي تميزت بظهور تعبيرات جديدة للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وخاصة منها الحيوية، أبرزها طفو النزعة النيوليبرالية ومبدأ اقتصاد السوق والعملة، وشيوع نماذج الاستهلاك التي استغرقت البرجوازيات المتقدمة في انتاجها، على سطح الثقافة الغربية المعاصرة، اننا نقف اليوم أمام عصر السيولة العارمة والمرونة المتجددة، والانسيابية المرتخية، والليونة الفائقة، ولم تكن الهويات التي كانت تحوز على امتياز المبدأ الكلي والصلابة الفلسفية، والمرجعية الفكرية الثابتة التي تستند اليها كافة الحقائق، ضمن سيرورة هذه الأحداث في معزل عن هذا التحول الذي أصبح يشكل موضوعة العصر، ومن خلال هذا التمهيد الموجز يتسنى لنا طرح الاشكال الآتي: اذا كانت التكنولوجيا حقيقة ثابتة فرضته علينا طبيعة البيئة التكنوتقنية المعاصرة لمجابهة تحديات العصر، وسبيلا حثيثا لبلوغ الانسان تطوره المنشود، فهل الاحتكام لمنطق هذه النزعات التكنولوجية وحدها دون الرجوع لأي اعتبار أخلاقي يضبط نزوعها التقدمي هذا، يؤدي بالنوع البشري الى هوة الزوال والهلاك الأنطولوجيين؟

هل تعتبر التكنولوجيا اليوم محض جسر عبور الانسانية الى ضفة ما بعد الانسان كمشروع مستهجن مجرد الملامح الانسانية؟

هل أصبحت الممارسة العلمية اليوم التي كانت في الأمس نورا يزيل غشاوة الجهل عن بصائر الانسانية، محض لهيب نار أحرق روح البشرية ليختنق في كنهها الآلي وجودنا الأنطولوجي؟
هل باتت وجودية الانسان وواقعانيته عبئا أنطولوجيا تحركه سطوة التكنولوجيا؟

كانت هذه الفرضيات المعتمد الأساسي والمنطلق لهدف بحثنا، والذي سعينا من خلاله الوقوف على ابراز مآلات التطور العلمي، وتقدماته التكنولوجية التي فرضت ذاتها عنوة على الحياة العامة للانسان المعاصر، حيث أصبح يشهد نوعا من التمزق الأنطولوجي نتاج سطوة العنصر المادي للبيوتكنولوجيات المعاصرة على حياته، والتي ما انفكت الا أن تذر الانسانية جريحة الروح، مشتتة الهوية، ممزقة الأواصر...

معتمدين في عرضنا هذا، آليات المنهج التحليلي والنقدي في عرضنا لأفكار أبرز الفلاسفة الذين أطلوا الحديث سواء مؤيدين لهذا النزوع التكنولوجي المتحرر من كل الزام واعتبار خلقي ومعيارى، أو رافضين لفعل التحرر هذا الذي كاد أن يضع الانسان تحت محك طاحونة العدم وتلاشي نوعه البشري.

2. الانسانية المتحولة (نحو تدشين عصر ما بعد الجينومي)

1.2 تدجين الكينونة صناعة تكنولوجية فائقة (من الانسان الى ما بعده)

قبل التطرق الى أهم ما جاءت به مواقف الفلاسفة فيما يخص موضوع بحثنا، وأبرز أفكارهم التي تم طرحها في أواسط الاهتمام الثقافي التكنولوجي المعاصر، كان يجب علينا وقبل كل أمر التطرق الى أبرز مفهوم محوري في خضم دراستنا هذه، والذي يعتبر الخيط الناظم لورقتنا البحثية، والمتمثل في مفهوم التكنولوجيا، هذا المفهوم اللامع الذي أصبح يستهوي العقول على اختلاف مشاربها، وأنماط تكوينها، والذي فرض ذاته عنوة على العقلية الغربية المعاصرة، نتاج رغبة الانسان الملحة في بلوغ مستوى أعلى من التحسين.

أولاً: في مفهوم التكنولوجيا.

جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليباً تعريفاً لمفهوم التكنولوجيا **Technologie** يتمثل في أنها "علم التقنيات، وهو يدرس الطرق التقنية من جهة ما هي مشتملة على مبادئ عامة، أو من جهة ما هي متناسبة مع تطور الحضارة"¹ انه علم ينصب جهد ذاته على الجوانب التقنية الادائية المرتبطة بالتطور العلمي الذي يتيح لنا انتاجية الأدوات الالية، ذات أجيال جديدة معدلة الذكاء، والتي تساعد الشعوب على مواكبة عصر التقدم وبلوغ التطور الحضاري، فلا سبيل لبلوغ هذا التطور الا من خلال صناعة جملة من المعدات والاليات والعتاد الالي الذي يوفر الجهد على الانسان ويحمل عنه اعباء الحضارية، خاصة وأننا نشهد عصراً يتسم بالتسارع التكنولوجي الجامع الذي لم نشهد له مثيلاً من قبل، فالتكنولوجيا تمثل في مطلقها دون شك "مجموع الآلات والاليات وأنظمة ووسائل السيطرة والتجميع والتخزين ونقل الطاقة والمعلومات، كل تلك التي تخلق لأغراض الانتاج والبحث والحرب، وتكمن متطلبات التكنولوجيا وراء تطور العلم الطبيعي"² ان التكنولوجيا هي تعبير عن مدى السعي الدؤوم لخلق وانتاج وسائل جد متطورة، حيث تستند هذه العملية الصناعية الى مدى فاعلية النتاجات العلمية المستمرة، التي يبلغها التجريب العلمي لغايات معينة وأهداف مسطرة، اما من أجل تسهيل المتطلبات الحياتية على الانسان، واختصار الجهد والوقت

وتوفرهما تحت ظل عصر رقمي تتقارب فيه الأفكار والمعلومات والعتاد التقني أيضا، واما أن تكون التكنولوجيا تعبيرا عن اشباع رغبة الانسان التدميرية والتسلطية على الشعوب المغيرة، فلا يجد الانسان سبيلا حثيثا غير العتاد التقني فائق التطور لفرض هيمنته والقاء الذعر في نفوس الآخرين، ونحن نجد مثالا حيا عن ذلك تنطق به لسان الحرب العالمية الثانية الذي تعتبر هجوما نوويا شنته الولايات المتحدة الأمريكية ضد الامبراطورية اليابانية، وما خلفته من دمار بسبب تفجير القنبلة الذرية التي تعتبر نتاج علمي تكنولوجي متطور يجمع بين التركيبة الفيزيائية والكيميائية.

ثانيا: التكنولوجيا سبيلا لتدجين النوع البشري لدى بيتر سلوتردايك

يعتبر الفيلسوف الألماني بيتر سلوتردايك Peter Sloterdijk (1947-...) والذي يلقب في العادة بالفيلسوف الساخر، أو بالنيتشوي الجديد، وذلك نظرا لتزوعه الفلسفي الازدواجي، والذي انصهرت في متونه الفكرية النزعة الساخرة التهمكية من جهة والنزعة التطورية التجديدية التفاؤلية بالتكنولوجيا المعاصرة من جهة أخرى، فأما عن النزعة الساخرة فهي ليست الا ترجمة فعلية للعصر الأوروبي المعاش، انه عصر غلب عليه اللون الرمادي الحزين نتيجة اختمار الأزمت الوجودية في ثانيا الحضارة الأوروبية. ما أدى الى اختناقها بفعل التدمير الذاتي الذي شهده الغرب خاصة في الفترتين الزمنية (1914-1918) و(1939-1945)، واللتين لم تكونا مجرد فترة زمنية عابرة بل كانت بمثابة هالة تدميرية أدمت بالشعوب الغربية، حيث ودعت فيهما الأمة الأوروبية ربيعها وطاقتها الشبابية، وقوتها الجامحة التي طالما تباغت بها على مر الأزمنة، وارتمت في نهاية الامر في براهن الشيخوخة القاتلة، نتاج اختناق أودتها الثقافية والحضارية وحتى البيئية بالهواء العكر الذي ولده الانفجار العالمي، أصبح هذا العصر الأوروبي الذي طالما حمل تباشير ميلاد نزعة عقلية تنويرية شاملة جد متطورة، مجرد شعار مهترئ لم يجد لنفسه تحققا الا على ضفة السخرية التي قال بها سلوتردايك، فهي التجربة الواقعية المعاشة، والتي أصبحت تجد في التهم ذاتها الحقيقية حسب سلوتردايك، ولتمرده من جهة على قيم وشعارات وأيقونات عصره خاصة منها الليبيرالية، انه من منظور سلوتردايك عصر كلبى بامتياز، أما عن حقيقة تأثره بالفكر النيتشوي النقدي المشوب بالنظرة التجديدية للعالم الواقعي، فبيتر وجد في تأويلات نيتشه الروح الحية لمشروعه النقدي التطوري للكائن الحي، فهو يرى الى العالم تلك الرؤية النيتشوية التي تتسم بالمرونة والسيولة، ما يؤدي الى رفع الحواجز بين الموجودات وكسر كل الثنائيات ليصبح الكل واحدا مركبا هجيناً، بناء مكونا من عدة كينونات وعناصر مختلفة، يلتحم في ظلها كل الأضداد، اي انه ليس ثمة امكانية لوجود حقائق مطلقة ومأكدة لا يجتاحها

التغيير، وأنه ليس ثمة امكانية لبناء انساني مستقل عن العالم الخارجي بل أصبحنا ننظر الى بنية الانسان وفقا لتصور سلوتردايك في مرايا الغيرية من عناصر بيئية وتكنولوجية وغيرها، خاصة في ظل التطور التكنولوجي الذي فرض نوعا من التغييرات على الواقع وعلى الذات الانسانية نفسها، أصبح الانسان كينونة قابلة للتغيير-، من أبرز الفلاسفة المعاصرين الذين أولوا العناية الفائقة بالتكنولوجيا، وكل ما تفرضه علينا الزعة التقدمية للعلم اذ يجب علينا مسايرتها واعادة بناء تصورات جديدة للانسان في ظل التحديات التي يفرضها علينا العصر الرقمي، وبالتالي "يشار الى أفكار سلوتردايك بوصفها ما بعد الانسانية post-humanism، لأنها تسعى الى دمج العناصر المختلفة التي فصلت قصرا - من وجهة نظره- عن بعضها البعض. وبناء على ذلك فانه يقترح "الدستور الوجودي" الذي من شأنه أن يدمج جميع الكائنات: الانسان والحيوان والنباتات والآلات معا"³ وبالتالي الانشغال الرئيسي لبيتر سلوتردايك يكمن في النظرة التأسيسية لمشروع ما بعد الانسان أو الانسانية المتحولة المتمثلة في نموذج مستهجن مركب من عدة عناصر منفصلة وذلك وفقا للتطورات التكنولوجية فهي السبيل الوحيد لبلوغ هذا النمط الانساني أو بالأحرى النمط المابعد الانساني الذي يشبه في توصيفاته "السوبرمان" أي الانسان الأعلى الذي قال به فريديريك نيتشه، وهو عبارة عن جملة من الامكانات التي يتجاوزها الانسان الى ان يصل الى نموذج الكمال، لكن هذه التجاوزات التي يفوقها الانسان الكامل باستمرار لا تكون داخل النوع البشري، بل تكون خارجه اي نوع فائق يتجاوز الجنس البشري باستمرار، هي نوعية أنطولوجية متجددة تتسم بصفات غير بشرية، بل وتتجاوز عناصر الانحطاط فيه وصولا الى ارادة القوة التي جعل منها "فريديريك نيتشه" المبدأ الكوني الشامل الذي يحكم الوجود، فالسوبرمان ليس الا تجسيدا لفكرة ارادة القوة الذي يتجاوز بها الانسان الاعلى كل عناصر وسمات الضعف وارادات الارتكاس الى تحقيق كائن يكون أكثر قوة وصلابة، يتساءل سلوتردايك في كتابه الموجز قواعد من أجل بناء حضيرة بشرية، وهو الكتاب الذي تطرق فيه بيتر سلوتردايك الى عنصر التكنولوجيا وما لوسائلها التقنية من دور بارز في تحقيق التحسين الجيني على النوع البشري، فالكائن الحي وفا لمنظوره ليس كائنا نهائي الوجود، كامل البنية، بل هو مشروع جينومي قابل للتعديل والتطوير وفقا لنموذج التكنولوجيا المعاصرة، قائلا: "هل يجب على الانسان نفسه أن يضل طريقه أحيانا في الحشد الهادر، كل ما يفعله هو التأكد من أنه انسان أيضا وبالتالي يمكن أن يصاب بالعدوى الوحشية"⁴ يردف سلوتردايك تساؤله الاستنكاري هذا باجابة مؤكدة، مفادها أن اللقاءات العلائقية التي تربط الانسان بغير

الانساني، من شأنها أن تجعل منه مشروعاً أنثروبولوجياً منفتحاً أكثر على الأخيرة، على الحركة، والتغيير والاستمرارية، والمرونة، والانسيابية، وبالتالي فعل الانفتاح هذا لا يشكل في مطلقه حسب سلوتردايك خطراً على الهوية النوعية للإنسانية، بل تجعل منه كائن الممكنات اللامتناهية، والمتعددة، لا كائن الهويات المجردة والمتعالية الخالصة، والكينونة المفترضة النهائية، وبالتالي كل نزوع إنساني هو نزوع أنثروبولوجي واقعي ينحو نحو عالم الأشياء على اختلاف أنماطها كجزء متصل بكينونتنا، لا كجزء مستقل، إنما من شأنه أن يخلق لنا نوعاً من الهويات اللانسانية القابلة للتجديد وللاندماج أكثر مع كل ما هو مختلف، فسلوتردايك لا يرى بأن الإنسانية تتجاوز أطوارها الأنثروبولوجي مطلقاً، فهي ليست إلا كائناً وجودياً متشعباً يلتقي مع غيره من الكائنات سواء أكانت بيولوجية أو غير بيولوجية، ما يبرر لهذه العلاقات الإنسانية بغير الانساني، اللقاءات الأخلاقية بغير اللاأخلاقية أيضاً، يهدف سلوتردايك تساؤلاً آخر حول ما إن كانت الحقيقة الإنسانية نابعة من ذاتها أم أنها تدين بذلك للعوامل الخارجية، وأبرزها عامل البيوتكنولوجيات وعلى رأسها وسائل الإعلام الالي، قائلاً: "كيف يمكن لأي شخص أن يصبح إنساناً حقيقياً (...)", يصبح الوجود مسألة إعلامية لا مفر منها، إذا فهمنا من خلال وسائل الإعلام، وسائل التواصل الذي من خلاله يصل البشر إلى ما يمكنهم أن يصبحوا عليه وما سيصبحون عليه"⁵ فنحن عندما نقف أمام عالم تسوده الرقميات، وتهمين عليه النماذج الالكترونية أكثر منها انسانية، فإن ذلك يصبح كفيلاً على إعادة تغيير فهمنا للطبيعة الإنسانية ويملي علينا إعادة النظر للواقع أيضاً، أصبح الوجود يقرأ وفقاً لنموذج تقني رقمي الكتروني احتكرته وسائل التكنولوجيا المعاصرة، لقد كانت الكتابة في سالف العقود حسب سلوتردايك تشكل ناقلاً للارث الانساني، فعن طريق المؤلفات والأرشفة نتعرف على التاريخ العميق للموروث البشري المتنوع، أما اليوم وتحت هيمنة الوسائل التكنولوجية الحديثة من اعلام وغيرها نقف أمام ناقل جديد للإنسانية، ناقل رقمي وفقاً لما يتماشى وتقنيات العصر، "وبهذا فإن التقنيات الحديثة مثل علم تحسين النسل تطرح مسألة الكينونة البشرية بوصفها وسيطاً أو ناقل جديد، جلبت قدرات القراءة والكتابة المجتمعات إلى القدرة على قراءة الجينوم البشري، ولأن هناك مسافة صغيرة بين الترويض (...) والانتقاء (...) فإنه يحق لنا أن نتساءل من نحن بمصطلحات الجينات؟ ومن شأن اجابة بسيطة ب "لا" اهمال العملية التعليمية التي أوصلتنا إلى هنا الآن، (...) ولهذا فإنه يطالب بصياغة دستور من الانثرو-تقانات وفقاً لمنطق المشاكل، ووفقاً لقضية التحولات"⁶ لم ينته المطاف بسلوتردايك إلى الاعتماد على أحدث التقنيات في فهم

الطبيعية الانسانية وفي اجراء التغييرات اللازمة عليها وحسب بل ذهب الى أبعد من ذلك حينما قال بنظريته التي احتلت مكانة بارزة في مجال الاهتمام المعاصر والتي تعرف بنظرية "ثلاثية الكرات" على حذو بنيامين، حيث يرى سلوتردايك أنه ثمة امكانية لافتراض بيت الوجود مثلما قال به هايدجر لتسكنه الكينونة ولكن ليس نزلا وجوديا حقيقيا، وانما مسكن مصطنع يفسح المجال للاقامة الداخلية، وذلك بالاعتماد على التقنيات المتطورة اليوم "من أجل تحصين الوجود عن طريق الجزر الواقية، انه يستخدم الزجاج والحديد وقطع الغيار الجاهزة بغية بناء أكبر داخل ممكن، وتبشر الاروقة بالغاء العالم الخارجي، انها تلغي الأسواق في الهواء الطلق وتجلبها الى الأماكن المغلقة، الى الكرات المغلقة"،⁷ انه أمر أشبه بجعل العالم والاسرة والمجتمع وعالم الأشياء كلا واحدا، أمر يتيح فرصة التعايش مع الآخر ضمن نطاق رباعي الأطراف تجمع بينهم علاقة منفتحة لا حصر لها، بين الأنا والآخر ومع أشياء أخرى خارجية في حيز مكاني آخر أيضا، تروض فيه البشرية وفقا لنمط الانثرو تقانة التي من شأنها اليوم زيادة العالم وحل مشكلاته الانطولوجية أيضا.

2.2 تفكيك التصور التقليدي للانسان والانفتاح على انسانية جديدة أكثر مرونة واستهجانا "روزي بريدوتي"

على خطى الفيلسوف الساخر سلوترديك تنهج الفيلسوفة الفرنسية روزي بريدوتي (1981-...) نفس الخطى في تأكيدها على أهمية ودور التكنولوجيا، في تحقيق التطور والتحسين المنشود في عصرنا الحالي، وهي بذلك لا تتوانى في حمل تبشير ميلاد نمطية جديدة من الانسانية على أنقاض تقويض الصورة الكلاسيكية للانسان الغربي خاصة ذلك الانسان الذي شيد معالمه الأولى الفيلسوف الفرنسي رونييه ديكارت، وعلى خطاه الثابتة مضى كل التقليد الغربي الحديث في تبجيل صورة الأنا الخالصة المتعالية عن العالم الواقعي، كمبدأ كلي شامل تعزى اليه كافة اليقينيات والحقائق، ترفض بريدوتي هذه النزعة الانسانية المفترضة الثابتة رفضا صريحا، بل وتدعو لتجاوزها الى مشروع يكون أكثر سيولة وانفتاحا يترأسه نوع لا بشري، لا يتوانى في الالتقاء بكل ما هو مختلف عن البنية الوجودية للأنا المحض، هو كائن مرن تذوب في صلبه كافة الانفصالات الانطولوجية، فيصبح فعل الاتصال بالعالم الخارجي أكثر تحققا، بعيدا عن فلسفة الانغلاق على العالم الداخلي للانسان، خاصة وأن هذا العصر قد غلبت عليه شعارات وأيقونات وخطابات متنوعة أبرزها الاشادة بأخلاقيات الغيرية وعلى رأسها اخلاقيات العناية بالبيئة، والاشادة أيضا

بالتطور التقني الذي بلغته الثورات التكنولوجية اليوم والتعبير عن الحاجة الانسانية الملحة له، وهو ما يعبر عنه بالدراسات التقنية في المجال البيولوجي أو الحيوي، هذه الرؤية الجديدة للفيلسوفة بريدوتي تؤدي بنا الى تأسيس رؤية وفهم جديد حول العالم والانسان، فهم يكون أكثر شمولاً وأكثر الماما بعلاقة الانسان مع غيره ضمن شبكة علائقية لا حصر لها، فالانسان لم يعد يحوز على خاصية التفرد الانطولوجي، بل أصبح كينونة متغيرة تتغير وفقاً لما يفرضه علينا الوضع التكنولوجي المعاصر وتسائر تطوراتها، في ظل هذه التحولات التكنو تقنية يولد نموذج مستهجن من الوجود، يتمثل في مشروع ما بعد النزعة البشرية، " ان التحول الى ما بعد المركزية البشرية، المرتبط بالتأثيرات المركبة للعولمة وأشكال الوساطة التي توجهها التكنولوجية، يصيب الانسان في قلبه ويغير العوامل التي تستخدم لتعريف الانسان - الانثروبوس (...). ان قضية ما بعد المركزية البشرية تعنى بدراسات العلوم والتكنولوجيا وثقافة الوسائط الجديدة، والرقمية وحماية البيئة، وعلوم الارض، وعلم الوراثة الحيوية، وعلم الاعصاب والروبوهات، والنظرية التطورية، والنظرية القانونية النقدية، وحقوق الحيوان والخيال العلمي"⁸ تطرح "بريدوتي" في خضم تشابك هذه الحقول الاستيمولوجية سؤالاً جوهرياً ينم عن عمق التحولات والتغيرات المتجذرة في مسارات ودروب ذهنية ما بعد الحداثة، وأبرز مفاهيمها الاساسية والمتمثل في مفهوم الكينونة أو مفهوم الذات، هل هذه الهوية البشرية خاصة في مرايا نظرية ما بعد الانسان قد حافظت على صلابتها أم أنها لم تكن الا أرضية بيولوجية لاعادة البناء والتكون، وفقاً لما تمليه علينا أساليب التكنولوجيا، وان كانت هذه الذات البشرية قد خضعت لمنعطف تكنولوجي حاسم ادى الى تغير ملامحها الأنطولوجية الثابتة، فأى ذات وأي كينونة بعد هذه التحولات؟ تجيب المفكرة بريدوتي عن هذا التساؤل الأنطولوجي بقولها أن الفرد "يتفاعل مع هذا التغير في المنظور الى حد بعيد على علاقة الفرد بالتكنولوجيا، ولأن لدي ولعا بالتكنولوجيا الى حد ما، فأنا متفائلة جداً، سوف أؤيد دائماً الامكانيات التحررية لهذه التقنيات، بل حتى تلك التي تتجاوز المعتاد، ضد أولئك الذين يحاولون فهرستنا الى شكل محافظ يمكن التنبؤ به، أو الى نظام يسيره الربح ويعزز النزعة الفردية ويضخمها، أظن أن احدى المفارقات الأكثر وضوحاً في عصرنا هي بالتحديد التوتر بين الحاجة الملحة الى ايجاد طرق جديدة وبديلة للوكالة السياسية والاخلاقية لعالمنا الذي تتوسطه التكنولوجيا وبين عطالة الذهنية الراسخة، وصفت ذلك دوناً هارواي (...). الآلات حية للغاية، في حين أن البشر حاملون للغاية"⁹ تمضي روزي بريدوتي بنزوعها المتفاؤل فيما يخص العتاد التكنولوجي الى مدى يفوق المعتاد، فهي ترى بأن

التكنولوجيا سبيل حثيث لكسر النمطية السائدة التي ألفتها المجتمعات الغربية، ولكسر أيضا القوالب الجاهزة التي تربت عليها العقول خاصة تلك التي رسختها المادية الغربية الحديثة التي اتسمت بالصلابة، كما أنها ترفض أيضا النزعات الفردانية المعاصرة التي تعرف بالنيوليبرالية والتي أنتجت النزعات الاستهلاكية الما بعد الحداثية تحت تأثير المجتمعات البرجوازية، فهي لم تنتج لنا الا نموذجا استهلاكيا لا يتوانى في تعظيم رغباته الجسدية وتلبية حاجياته الفردية على حساب روح الجماعة، فمثل هذه المجتمعات التي طغى عليها مبدأ السوق، أصبح فيها الانسان كما وصفه الفيلسوف الفرنسي "جيل لوبوفسكي" انسان مرتخي لامبالي يكرس جهده لذاته لتعظيم نموذج الشخصية كنظام اجتماعي، قامت في أساسها على تغيير وإعادة هيكلة المجتمع الغربي وفقا لصورة الأنا ومتطلباتها الذاتية على حساب سحق المثل العليا وكل ما يتبعها من أخلاقيات والزامات، أصبحت الايقو التي غرقت في نرجسيتها، هي النزعة الطاغية على مجتمعات الما بعد حداثه، ما أدى الى تمزيق أواصر المجتمع، وطفو النرجسية على سطحه، والى اهمال القضايا الكبرى اما على مستوى السياسية أو الثقافة أو الدين، والاهتمام فقط بتوافه الأمور، انه عصر الصعاليك الهابط والميوعة كما برع في وصفه الفيلسوف "الان دونو" فكلما كان الانسان أكثر بلاهة وحمقا كلما كان أكثر شهرة وريادة، كان هذا النموذج الاستهلاكي الذي مضى مطولا في تمجيد احتياجاته اجترارا من صنع البرجوازيات المعاصرة، فهذه النماذج الاستهلاكية ليست الا أجسادا قابلة للتسليع وللتعليب، أما عن الروح فهي تشهد أزمة خواء روحي بامتياز، ذلك أننا أمام نزعة مادية همها الوحيد الاهتمام بالجسد الذي أصبح يشكل في خضمها رأس مال ما أدى الى خلق أزمات أبرزها تشضي جوهر الهوية الحقة في عالم الموضة والمراكات المتجددة، فكلما قامت البرجوازيات على تخريج وانتاج سلعا تتصف بالغواية، ولها جاذبية أكثر كلما زاد تأثيرها في نفوس الزبائن، وكلما تم استهواء المجتمعات وانساق أكثر للاقبال المفرط على هذه المنتجات، انه عصر الاغواء الذي يقوم على مدى غواية الصورة فهذه الحضارة كما يسميها "جان بوديار" حضارة الصورة بامتياز، التي خلفت أزمات عميقة أبرزها غياب المعاني الانسانية الحقة، في عالم تسود فيه ثقافة الجسد كـرأس مال.

اذن نجد أن بريدوتي ترفض هذا النموذج الاستهلاكي القابل للملأ والتعبئة، والمشيّع بالنرجسية والاستغراق في حب الذات ولذاتها فهي التي ليست الا تضخما للنزعة الفردانية، حيث "يحول الاقتصاد السياسي الانتهازي للرأسمالية الوراثة الحيوية الحياة زوي- أي المادة الذكية البشرية وغير البشرية الى سلعة للتجارة

والربح¹⁰ تجعل روزي من هذه النماذج الاستهلاكية التي تنم عن الاقتصاد السياسي للمجتمعات البرجوازية تابعة لمرحلة ما بعد المركزية البشرية، فقد عمدت هذه النزعات الاقتصادية للرأسماليات الحيوية على جعل الانسان ينزاح عن المركز، كما أن روزي بريدوتي ترفض رفضا قاطعا أي محاولة لترسيخ قاعدة تحافظ على استقلالية النوع البشري والقول باختلاف بنيته الوجودية عن بقية الموجودات، وبالتالي الاقبال أكثر على نظرية تهجين النوع البشري وفتح باب التحول والتغير على هويته، وفي ظل هذه التحولات الانثروبولوجية تسقط السيادة عن السيد والعبودية أيضا عن العبد، فتتساوى الأنواع والأنماط ويصبح بذلك العالم في ظل هذه المعادة التي تفرض التساوي بين الموجودات في عالم حيوي غير محكوم بالثنائيات مطلقا، "لقد وصفت هذه العمليات على أنها تحول - نحو الحيوان، وتحوا - نحو- الأرض، وتحول نحو الآلة"¹¹ ان منطق التحولات هذه والتي يعتلمها فعل التحول نحو الحيوان مرهون حسب بريدوتي بمبدأ الاعتراف بوجود حيواني آخر مع الوجود الانساني ولا بد من الاقرار به واخذه بعين الاعتبار، فما دمنا كائنات أرضية تجمعنا بيئة واحدة لا بد من التكفل ببقية الكائنات، أما عن التحول نحو الأرض فان بريدوتي تقرر بأنه لا بد من تحقيق فعل التقدم والتطور على أرض الواقع ولن يتسنى لنا تحقيق ذلك الا في ظل التحول نحو الآلة فالتكنولوجيا هي السبيل الوحيد لبلوغ هذه الاستدامة الأرضية، وهي ذاتها التي تعتبر الأرضية الجديدة التي لا بد وأن تتشكل وفقا لميادنها الآلي الذات الانسانية وعلومها الحيوية، ترى بريدوتي أن النزعة الاوديبية العدوانية تجاه الحيوان قد زادت وتيرتها خاصة في ظل هيمنة مبدأ اقتصاد السوق الذي جعلت منه النزعة البرجوازية يعامل الانسان والحيوان كأشلاء جسدية مرهونة فقط بما تحققه من عائد مالي مريح، وهذه النزعة العدوانية التي تم ترسيخها منذ بداية الحركة الانسانية الأنوارية ضد كل ما هو مختلف، انما هو استغراق في اعادة انتاج هامشية الآخري المختلفة، والتعامل معها وكأنها عناصر وحشية وبدائية متخلفة خارجة عن الدائرة الطبيعية لها، ونحن نجد أمثلة عن هذا التعامل الوحشي مع الحيوان من خلال المتاجرة الغير مشروطة بأعضائه واستعمالها كمادة صناعية اقتصادية تجلب الأرباح بعيدا عن التعابير الأخلاقية، لهذه الوسائل الانتاجية فهي لا تعير اهتماما، على ما اذا كانت هذه التجارة قد تؤدي الى القضاء على سبيل المثال على أنواع نادرة من الحيوانات، وبالتالي خلق خللا في الثروة الحيوانية، ناهيك عن تلك التجارب التكنولوجية الحيوية التي جعلت من الحيوانات حقل تجريب لها من أجل التعرف أكثر على بنيته البيولوجية وتطوير أبحاثه التي لا تعرف الركون لأي الزام خلقي: فهي انتهاز رأسمالي غير مشروع....

ترى برودوتي أن ما بلغته القفزات العلمية التكنولوجية في المجال الحيوي اليوم من شأنها إعادة رأب هذه التصدعات الوجودية بين الإنسان والغير انساني، والنجعة دولي أفضل مثال على عملية إعادة الربط هذه، فتطبيق التكنولوجيا على المجال الحيوي ولد لنا استنساخ نماذج مستهجنة معدلة وراثيا تجمع بين ما هو آلي وبين ما هو حيوي كنتيجة تطور لعمليات تجريبية على الكائن الحي، وأما عن الفأر أونكو فهو الآخر يتمتع ببنية مستهجنة، والتي تعتبر دون شك تعديلا وراثيا على بنية الحيوان، انه صناعة آلية تم برمجتها وتشكيلها من أجل أغراض تجارية وأخرى طبية، كانت لمثل هذه الابتكارات أن تضع الذات الانسانية على محك النقد والتفكيك وإعادة البناء أيضا.....

3. التكنولوجيا رهان لإعادة البناء

1.3. النظرية التطورية صياغة جديدة للانسانية

مما لا شك فيه أن النظرية التطورية كنظرية فلسفية الحادية، والتي أسسها الفيلسوف البريطاني تشارلز دارون Charles Darwin (1809- 1882)، قد رسخت خطاها المادي في الثقافة الغربية، فهو لم يكن خطابا محتشما بل كان صريحا في طرح توجهه الذي عرف على مدى مئات السنين بالغاية الداروينية والممثلة في غاية البقاء للأقوى وللأصلح وفقا للانتخاب الطبيعي الذي لا يعرف شيئا اسمه الالتزام الأخلاقي أو الغايات العليا السامية، او كل توجه ميتافيزيقي يعلو عن الواقع، كل ما هنالك هو تفاوت في القوى الاجتماعية، هذا التفاوت والفروقات تستند الى منطق التصارع، الحياه ليست الا معتركا لفرض السيطرة والهيمنة من طرف الأقوى أما عن الضعيف فهو لا يجد فيها مكانا له، وبالتالي تتحقق الغاية الداروينية من فعل التجاوز المستمر لكل ارادات القوى الضعيفة والقضاء على عناصرها المنحطة من أجل ضمان البقاء، هذا البقاء للأقوى الذي نادى به دارون ليس الا محاولة للمحافظة الأنطولوجية على نقاوة الدم ومادته الوراثية من أجل تشييد جنس جديد من البشرية لا يعرف معاني الضعف والاستكانة، لا تختفي هذه الغاية الداروينية عن الانظار في خضم اكتساح اقتصاد السوق والعولمة أرجاء العالم اليوم، فقد تجددت هذه الغاية على هيئة البقاء للأكثر انسيابا مع سيولة الوضع الراهن، والبقاء للأكثر استهلاكا وللأكثر انتاجا، فأى نزعة انسانية بعد هيمنة هذه العوامل التكنولوجية على خطى الغاية الداروينية المتجددة؟

تجد الكينونة البشرية في ظل هذه التحولات التكنولوجية وما سايرها من اختراعات جديدة أصبحت تحل مكانة الإنسان اليوم من وسائل اعلام جد متطورة واصدارات أجيال جديدة في الماكينات والروبوهات

والأجهزة الذكية كل هذه الاختراعات التكنولوجية وغيرها من الابتكارات ذات البنية المعقدة أصبحت اليوم تفوق الجنس البشري "في الدقة والتكلفة والانتاجية دون حقوق أو مطالب حياتية ملحة ومتنامية، الى العتاد الحربي بكافة أشكاله المروعة التي تفتق عنها الذهن الانساني...الى سلع الاستهلاك اليومي الذي امتزج فيها مفهوم الحاجة بمفهوم الرفاهية، فاختلط الضروري بالكمالي اشباعا للهم الشرائي الذي تغذيه النظم الرأسمالية بالجدید دائما بصفته العصب الرئيسي لها وأهم عوامل بقائها ونموها"¹² لقد شكلت هذه الاختراعات التكنولوجية المبتكرة البنية التحتية للبرجوازيات المتقدمة والتي تستمد فاعليتها واستمرارها من عمق النزعات الاستهلاكية التي أصبحت تشكل اليوم الداعم الرئيسي لاستمرارية اقتصاد سوق العمل.

أصبح نموذج السوق الذي يلي حاجيات الانسان الرئيسية وحتى تلك التي تعتبر من كماليات العيش وتحت تأثير خطابات البقاء للأقوى وللأصلح المبدأ الأكثر هيمنة على الحياة الانسانية ما أدى الى اعادة طرح مفهوم الانسان في ظل هذه العلاقات التي تحكمها وسائل الانتاجية ليصبح بذلك مجرد تابع وملحق لسياسات سوق العمل والعمولة وأبجديات التكنولوجيا المعاصرة، نحن أمام مجتمع انتقلنا فيه من هيمنة البروليتاليا واستغلال طبقها الفقيرة على نحو غير مشروع، الى هيمنة السوق وأنظمتها التكنولوجية الدكتاتورية كاستجابة لنداء البقاء ليس الا للأقوى، فمن يمتلك اليوم الريادة هو نفسه من يمتلك أحدث التقنيات التكنولوجية للتسويق، وهو نفسه القادر على استبعاد الشعوب لما يتوافق ونموذج العمولة اليوم نموذج تتجدد آلياته الاستيعابية بتجدد وسائل الانتاج وتسارع الاقتصاد..." ان العلم الذي حول العالم المادي يمد الانسان بالقوة على تحويل نفسه، فقد كشف له عن بعض ميكانيكيات الحياة وأراه كيف يعدل حركته، وكيف يصوغ جسمه وروحه في قوالب ونماذج ولذتها رغبته...."¹³ أصبحت رغبات الانسان في ظل هذه الانسانية المتحولة اليوم، مستظلة بعباءة التقدم العلمي لتلبية كافة رغباتها حتى ولو لم تكن احتياجات ضرورية، ما أدى بالانسان الى الانشغال فقط بالهم الجسدي على حساب الهم السياسي والحضاري والثقافي، وبالتالي انتجت لنا هذه النزعات الاستهلاكية قوالب جاهزة يمكن تعبئتها بالاحتياج الجسدي وكل ما يرضي الأذواق الفردية....تعتبر المفكرة "جوليت شور" عن هذه النزعة الاستهلاكية بقولها: "الاستهلاك التنافسي، والميزة الرئيسية في هذه المناهج، هي أن الاستهلاك يؤدي الى الرفاهية والرضا"¹⁴

2.3. التحسين البيولوجي وعد تكنولوجي لتجاوز الذات "نيكولا لودفيديك"

يرى المفكر "نيكولا لودفيديك" بأن فكرة التحسين هي فكرة متجذرة في الذهنية الغربية فهي ليست وليدة البيئة المعاصرة، وليست أيضا تصورا حديث النشأة، بل كانت فكرة لصيقة مع مشروع الأنوار الغربي باعتباره مشروع عقلاني بامتياز، والذي ادخر جهد ذاته لتحرير النزعة الانسانية من كل أعباء التأثيرات السلبية الخارجية عنه وعلى رأس هذه التأثيرات، نجد سلطة اللاهوت المسيحي وما يتبعه من نبوءات مضللة وخاطئة تحجب عن العقل، التماس الحق الفلسفي، وتدرء عنه امكانية الانفتاح على التأمل النظري الحر، وبالتالي كان سعي مشروع الأنوار الحثيث هو بلوغ التقدم والتطور والتحسين من خلال الاحتكام فقط الى سلطة العقل ومبادئه المنطقية، فهو المرجعية الوحيدة، والاسلوب الفذ الذي يجعلنا نبلغ هذا التطور الذي من شأنه تغيير مسار الحركة التاريخية للثقافة الغربية، وهو ذات المشروع الذي من شأنه جعل الطبيعة تلي نداءات هذه النزعة التقدمية للعلم، فلم تعد الطبيعة مع التنوير الأوروبي ذلك الحيز المكاني الذي نال في العهد اليوناني مساحة هائلة من التبجيل والاحترام، فهي ليست الا ميدانا تجريبييا خالي من كل مفاهيم التابو والتحریم، يقاس مدى أهميتها فقط بتلبية حاجيات وأهداف وغايات النزعات الانسانية الغربية التي برع في خطها العقل الغربي المتملك، لذلك لا نجد أي مبرر لاستمرارية هذه النزعة العلمية التقدمية تاريخيا الا من خلال تسخير الطبيعة لخدمة النوع الغربي، فهي المجال الوحيد الذي تجد فيه النزعة الانسانية تحققا لذاتها العاقلة.

لذلك يرى المفكر "نيكولا" أن فكرة التحسين الحديث قد ارتبطت باطار سياسي أكثر منه بيولوجي أما اليوم وتحت ضوء التحديثات التكنولوجية الحيوية، والتي اخترق وميضها البنية الوراثية للكائن الحي، فان هذه الدراسات الحيوية كان من شأنها اعادة ربط فكرة القابلية للتحسين مع الاطار البيولوجي لها وتجردها من كل المعاني السياسية التي كانت تكتنفها من قبل حسب نيكولا، يرى "نيكولا" بأن هذه الطفرة التي حققتها التكنولوجيا الحيوية اليوم كان من شأنها أن تجعل من أفكار "مارك هونيادي" أمرا ممكنا من خلال قوله: "...من آفاق الاستدساخ الى طب مكافحة الشيخوخة، جعل تقدم التقنية والعلوم المعاصرة فكرة الفيلسوف مارك هونيادي احتمالا معقولا جدا: (...). فكرة لبونة الانسان الكاملة التي لا حدود لها سوى حدود الفيزياء والبيولوجيا نفسيهما، تحمل الهندسة الوراثية، والصيدلة، والتكنولوجيا، وتكنولوجيا النانو، والعلوم التقنية، الوعود اليوم نفسها، وعود تحرير الانسان من كل حتمية طبيعية، كما يشهد على ذلك استخدام كلمة "ما بعد الانسان" اشارة الى هذا الكائن الأكثر من انسان " الذي نقحته التقنية

وصححته" واقتلعتة من جذوره البيولوجية، ما يعني أن شعار مجتمعاتنا الغربية، وهو تجاوز الذات ربما يخفي الآن شيئا آخر¹⁵ ان هذا الوعد التكنولوجي اليوم ينطوي على امكانية القول بأقول الذات الانسانية والاقبال على تغيير كل ألواح قيمها وعاداتها، واجتثاثها من أصولها التي عرفت في سابق الأمر ثباتا أكثر، فان هذا الوعد يفتح أكثر على انسانية بثوب جديد تخطيطه الليونة والمرونة وتصحح تعثراته وترممها التقنية، ما يؤدي بنا الى التماس مشروع بيولوجي يحمل في ثناياه التطورية تباشير ميلاد نزعة لا انسانية، أكثر تحررا من النمطية والمعتاد وحتى أكثر افلاتا من تلك الحتمية الطبيعية لها، أي ميلاد نمط جديد من الانسانية يكون فعل التنبؤ بمستقبله أمرا عصبيا ومستعصيا...

4. الرهانات الأخلاقية لعصرنة الثورات البيوتكنولوجية

من المتفق عليه أننا نعيش اليوم عصرا تطوريا بيوتقنيا بامتياز، نظرا الى ما حققه هذا النزوع التكنولوجي من اكتشافات علمية مبتكرة ومهرة في كافة المجالات وعلى كافة الاصعدة خاصة منها المجالات الحيوية، فهي لم تكن ثورة علمية عادية الأوصاف، بل كانت طفرة نوعية لم يشهد لها مثيلا من قبل، غير أن هذه الانتصارات البحثية للعلم المعاصر، وعلى الرغم من كل تفوق حققته من ثورات بيوتكنولوجية والتي تعتبر في عمقها ثورات علموية غير مشروطة في الميدان الحي، بل ومتحررة من كل الالتزامات والقيود الأخلاقية في بحوثها، قد أدت بمسألة مستقبل الانسان وقيمه الأخلاقية الى حافة الانهيار، ذلك أن القول بالزامية وضرورة تلبية نداء التسارع التكنولوجي الفائق والتجرد من كل الثوابت المعيارية، ادى بالانقلاب الشامل والتغيير الذي مس كافة أسس ومبادئ الواقع، ليصبح بذلك الواقع لا واقعا - الواقعية الفائقة الذي تحل فيه المشاهد المعدلة تقنيا محل الواقع الحقيقي أي الواقع المصطنع على حد قول الفيلسوف "جان بودريار"-، الذي اعتبر الحضارة الغربية هي حضارة الصورة، وذلك لما تركته هذه الصورة من غواية واغراء وأثر في نفسية المتلقي أو المستهلك، نحن أمام واقع مغاير عن الواقع الذي عهدناه بفعل شيوع وسائل الاعلام كنمط تقني أبدى دوره في ترسيخ أسس لواقع فرضي موازي للعالم الواقعي، وهو واقع يمكننا القول عنه بأنه أسهم في ازالة الفوارق الفاصلة بين العالم الخارجي وبين العالم المصطنع، الى الحد الذي يصعب علينا التفرقة بينهما، ما أدى الى بزوغ فلسفة الواقعية الفائقة وفقا لنموذج الصورة المصطنعة البصرية التي أعادت هيكلة العالم الواقعي وفقا لمعايير فرضية تكون محاكية للواقع الخارجي، تموهنا عنه وتحل هي

محلّه، "ان مفهوم اختفاء الواقع (...) أكثر ما اشتهر به بودريار (...) حيث يعزو بودريار (اختفاء الواقع) الى حقيقة غياب العلاقة بين الدال والمدلول ، وهذا ما يحصل جراء مضاعفة فعالية الاعلام الذي حول كل الحياة الاجتماعية وكل الواقع الى صورة يقدمها الاعلام، (...) يستند بودريار الى هذا المبدأ ليتقدم بفرضية أن المجتمع المعولم الذي خلقت حوله وسائل الاعلام الجماهيري الرقمي قدرا كبيرا من الرموز المشبعة بالمعاني الذاتية المرجعية هو عالم زالت منه علاقة الدال بالمدلول ، وباتت الدلالة فيه والمعاني غريبة عن الواقع الذي صار واقع هذه المعاني، لا واقعه هو بالذات"¹⁶، وتصبح النزعة الانسانية لا انسانية – أي ما بعد الانسان ذلك المشروع الواعد الذي يحمل فيه ثنياه تطبيقات للكائن المستهجن، فهو عبارة عن مزيج معدل جينيا يدمج فيه العنصر البشري بغير البشري-، ويصبح اليقين لا يقينا، وتصبح الصلابة مرونة والثابت انسيابا، وبالتالي الانفتاح أكثر على عوالم تبشر بموت الحقيقة موتا كليا، وأقول كل المعايير الثابتة، من أجل الانفتاح أكثر على عالم يتسم بالسيولة المطلقة، والمرونة التي لا تعرف معنى للثبات ولا الاستقرار، فنحن أمام عصر، أصبحت السرعة فيه هي الثابت الوحيد والمتغير الذي وجب أن يكون مرجعا لكل خطابات هذا العصر، الى ذلك المدى الذي جعلنا حسب الفيلسوف الفرنسي "ادغار موران" بل ويلزمنا أن نعيش حالة عدم اليقين هذه، الا أن ثلة من المفكرين المعاصرين وعلى رأسهم عالم البيولوجيا "فرانسيس كولنيز"، والفيلسوف "فوكو ياما" قد رفضوا الرضوخ لهذا التوجه العلمي التكنولوجي المتحرر والغير مشروط ، نظرا لمخاطره المحتدمة والتي من شأنها أن تؤدي بالنوع البشري وتؤدي به الى الاندثار والتلاشي الكلي، وبالتالي وجب اعادة النظر في منطلقات العلم وغاياته وترسيخ رؤية نقدية لكل منطلقات ومآلات العلوم التطبيقية، فتصبح بذلك المسألة الأخلاقية هي الموجه والمقوم الأقوم والأبلغ لمسارات العلم، لا أن يصبح العالم في قبضة الممارسة العلمية الجامعة الغير مشروطة وحدها....

1.4 احياء التساؤل الأخلاقي لمسألة مستقبل الانسان وقيمه الاليتيقية

أولا. نهاية الانسان كتأسيس أخلاقي لعصر الثورات البيوتكنولوجية "فرانسيس فوكوياما"

يعتبر المفكر السياسي والاقتصادي الأمريكي "فرانسيس فوكو ياما" (1952-...)، من أبرز المفكرين المعاصرين الذين سخرُوا دراساتهم الفكرية وأبحاثهم السياسية لاعادة النظر في مسألة مستقبل الانسان وورثاته الأخلاقية، في ظل ثورات علمية لا تؤمن مطلقا بخطابات متعالية تفوق العالم الواقعي، ولا بما

يتبعها من الزامات أخلاقية ومنظومة معيارية من شأنها كبح جماح رغبات علموية، لا ترى الانسان والواقع والآخر البشري، والغير بشري، سوى ميدانا تجريبيا لتلبية نزعته المشبعة بفعل التملك والسيطرة، فهي أذان صماء لانسانية الانسان صاغية تمام الاصغاء لصوت العلم وحده، ولا تتوانى أبدا في جعله مجرد صدى يعكس مدى تطويرية هذه النزعات العلموية المتطرفة، وقد برع "أرنست رينان" في تجسيد تطرفية هذه النزعات العلمية من خلال جعل العلم المرجعية الوحيدة التي تشكل في مطلقها الخلاص الأبدي للبشرية من همومها الوجودية قائلا: "فالاخلاص آت من العلم وحده وان الايمان بالوحي أو بقدرة فائقة للطبيعة انما هو ضرب من ضروب الاسقاط والغاء الوحي الناقد"¹⁷ كان للمضي في دروب هذه النزعات العلمية المتزمنة اختناقا صريحا لوجودية الانسان، لا لخلاصه كما زعم رواء العلم الحديث، فبدلا من أن يترأس الحضارة الغربية اليوم مشاهد رخاء الحركة الانسانية، وتنعمها بفردوسها الأرضي الذي شيدته وفقا لمعايير علمية بحتة، أصبحت تشهد ذعرا وجوديا مروعا خرق بنية أنطولوجية الانسان النوعية ورمى بكافة معانيها الانسانية الى غياهب جب النسيان، ما أدى بالفكر الأخلاقي المعاصر الى التفكير الجدي في هذه الأزمات المختمرة في ثنايا النزعات العلمية وتطبيقاتها البيو تكنولوجية اليوم وتنميتها بالتعبيرات الأخلاقية كضمان أنطولوجي وحيد يؤدي بنا الى تجاوز احتضار بروميثيوس في روح الحضارة الغربية، الى الاستقرار على ضفة نبوءات الكائن البشري لا كائن يتجاوز طبيعة النوع الانساني...

يرى فرنسيس فوكوياما أن هذه التطورات البيوتكنولوجية التي جعلت من الانسان مجرد مادة مثله مثل غيره من الأشياء المتحيزة في العالم الخارجي، ليس الا سبيلا لبلوغ التطور المنشود، قد أفرز لنا عواقب وخيمة أدت بالاقبال على عهد جديد من المتغيرات أبرزها طفو فكرة ما بعد الانسانية على السطح الغربي، فالخطر الاعظم الذي يواجه البشرية حسب فرنسيس فوكو ياما هو التغير الجذري الذي يسكن قلب هذه الثورات الغير محكومة بأي تعبير خلقي من شأنه أن يقوم ويصحح مسارات عملية التحديث هذه التي يجد فيها الانسان الغربي ضالته حتى وان مست بكرامته وأهدرت قدسيته، يجسد فوكوياما نظريته التأسيسية لأخلاقيات العلم الحديث من خلال مشروعه الذي أخذ مسمى نهاية الانسان، كمشروع أخلاقي يحث على الزامية التعامل مع الانسان ككائن أخلاقي قبل كل شيء وهي فكرة لا ترفض العلم أبدا بل تؤكد على ممارساته التحديثية في سبيل تحقيق التطور المنشود الا أنه يجب أن يكون مصحوب بالنظريات الأخلاقية التي تضبطه، فنحن أمام قضايا علمية بلغت من التطور مبلغا عظيما من شأنه أن يغير وجه العالم ككل

بداية بالطبيعة البشرية، وذلك من خلال التطرق الى أحدث هذه الأبحاث العلمية أبرزها الذكاء الاصطناعي، العمل على اختراق بنية الهندسة الوراثية والاقبال على فكرة التحسين الجيني، اختراع أدوية عصبانية من شأنها تغيير النشاط العقلي الطبيعي للبشر، اختراع برامج آلية من شأنها جعل الانسان ذو تركيبة آلية متحكم في عواطفه وسلوكه، كل هذه الدراسات العلمية من شأنها أن تؤدي الى التغير الكامل في النوع البشري وبالتالي تحقيق التجاوز الفعلي للانسان الى ما بعد الانسانية.

تعتبر محاربة مرحلة الشيخوخة كمرحلة متقدمة من عمر الانسان، أيضا من بين ضمن هذه الابحاث العلمية التي لا تخفي رغبتها من خلالها جوانبها التطبيقية على البنية الحيوية للكائن الحي من بلوغ الخلود الأبدى، والذي يزعم فيه الانسان بأنه قادر على التغلب على حتمية الموت، من خلال تعديلات جينومية تكون بديلة عن الخلايا المتلفة عن طريق الاستنساخ، "فاذا كان هناك سبيل قصير الى الخلود، فان السباق للعثور عليه قد بدأ بالفعل وسجلت براءة جين للتيلو ميريز، وبدأت برنامجا في الخلايا الجذعية، (...) وهذه الخلايا تؤلف الجنين في أول مراحل تناميهِ قبل أن تتميز الى الانماط المختلفة من الانسجة والاعضاء للخلايا الجذعية القدرة الكامنة على أن تصبح أي خلية او نسيج بالجسم ومن ثم تعد بتوليد أجزاء من الجسم جديدة تماما تحل محل أخرى بليت مع الشيخوخة، (..) تمثل بحوث الخلايا الجذعية واحدا من أكبر حقول البحث البيوطي المعاصر، كما أنها تغلفها أيضا خلافات هائلة لأنها تستخدم الأجنة كمصدر للخلايا، أجنة لا بد أن تدمر عند اجراء البحث"¹⁸، تعد هذه التجربة الجينية التي تعتمد في أساسها على استئصال عددا لا بأس به من الكروموزون من الخارطة الهندسية للأجنة ووصلها بالخلايا الجذعية التي شارفت على الانتهاء وقاربت سن الشيخوخة، من أحدثت العمليات البيوطية اليوم، بل من أبرز الممارسات العلمية التي تم الاقبال عليها في عصرنا، زعما من أن هذه العملية تسهم في ابقاء الانسان على حالته الشبابية، وعلى التحكم في الفئة العمرية للبشرية، الا أن هذه العملية تعتبر من الناحية الأخلاقية تجاوزا لا يمكن الاعتراف به مطلقا ولا يمكن قبوله حتى، لما له من أخطار قد تؤدي بحياة الانسان، ذلك لما انتهكته هذه الممارسات الطبية من كرامة الانسان وأطاحت بقدسيته، هذا من جهة ومن جهة أخرى يعد هذا التعامل مع الأجنة وكأنها فئران تجارب لأبحاث العلوم التطبيقية، فتترك بعد كل هذه الأبحاث أشلاء ممزقة لا معنى لها، منتهية الصلاحية مثلها مثل أي شيء لا يحوز على أدنى خاصية من الاحترام أم التبرجيل أو القدسية، تعاملنا غير أخلاقي البتة، أما عن الجانب الأكثر خطرا يتمثل في أن هذه المحاولات البيوطية

التي تعتمد على تغيير الحتمية الوجودية، التي فطرت عليها الطبيعة البشرية، وادخال تغييرات جذرية من شأنها ان تغير البنية الطبيعية للانسان وأن تخلق نوعا مستهجنا لا يمد بصلة للنوع البشري ناهيك عن كل تلك التشوهات الخلقية الناتجة عن اختراق هندسة الانسان الوراثية، من شأن كل ذلك صنع نوع قد يدمر النوع البشري ويؤدي به الى هاوية الانهيار والتهالك...، ما أدى الى ظهور جملة من الحقوق من بينها حقوق الانسان والحيوان والمرأة وغيرها من الحقوق التي تعتبر ترخيصا لممارسة الحياة في بعدها الطبيعي، "ومن المستحيل أن نتحدث عن حقوق الانسان- ومن ثمة عن العدالة والسياسة، والأخلاق عموما - دون أن تكون لنا بعض المفاهيم عن واقع البشر كنوع. (...) أنتج تطوير المؤسسات البشرية والمنظمات الثقافية مع الزمن مواقف أخلاقية بشرية مختلفة، لكن الطبيعة تضع قيودا على انواع التحوير الذاتي التي كانت حتى الان ممكنة، (...) فالطبيعة البشرية هي مجموع السلوك والخصائص التي تميز جنس البشر والناتجة عن العوامل الوراثية لا العوامل البيئية"¹⁹ وبالتالي تفرض الطبيعة البشرية حسب فوكو ياما على الانسان باعتباره كائن ثقافي وسياسي وأخلاقي أن يحور ذاته ويقومها وفقا لمنظومات أخلاقية، على الرغم من اختلاف المصالح الذاتية وتضاربها وحتى توجهاتها الأخلاقية وتعددتها، ما خلق تمايزا بين أوساط النمطية البشرية التي صنعتها الانترنت والعوامل التكنولوجية اليوم، وبين النمط الانساني الذي سبقه سالفاء، فان الطبيعة الانسانية وما يميز نوعها البشري هو ما يفترض عنها من تعبيرات أخلاقية من شأنها أن توجه وتقوم النمطين وترسم مسارا أخلاقيا وسياسيا لكافة الدوافع والعوامل الابداعية وأساليبها التقنية في تحقيق التطور، حيث يرى فوكو ياما أن هذه الطبيعة البشرية هي المنبع الأول لكل تعبير أخلاقي وهي مصدر مفاهيمنا الثابتة حول العدالة والفضيلة والمبدأ الاخلاقي الشامل فان تم اعادة النظر في هذه الطبيعة، وتم تعديلها، فان فعل التعديل هذا يؤدي الى المساس بالطبيعة الانسانية، باعتبارها مرجعا ثابتا لكافة تصوراتنا، وبالتالي احداث الانقلاب في كافة القيم النابعة عنها نتيجة فعل الرجة العنيفة التي مست بطبيعتنا الأولى....، لذلك تعتبر الطبيعة البشرية الأمر الأكثر ثباتا الذي يميز النوع البشري، والحقيقة التي لا بد من الحفاظ عليها في عالم تعتره حتمية المتغيرات

لا بد وأن نسعى للتطور نعم هي حقيقة مؤكدة ولكنها حقيقة أخلاقية قبل أن تكون هدفا تقنيا، بحيث لا نتخلى في تحقيق تطورنا المنشود عن كل ما افترضته علينا الطبيعة الأخلاقية الأولى للنوع البشري، فالانسان

مهما بلغ به التحسين وفعل التطور يظل انسان أخلاقي قبل كل شيء، لا أداة ومادة جامدة قابلة فقط للتغير وتلبية وتيرة التسارع التكنولوجي...

ثانيا. الهندسة الوراثية كدروة التطور البيوتقني جسر عبور نحو الاعجاز الالهي "فرنسيس كولنيز"

يعتبر عالم الوراثة الأمريكي ومدير المعهد القومي لبحوث الجينوم البشري "فرانسيس كولنيز" (1950-...) من أبرز المفكرين المعاصرين الذين أعادوا ربط العلم بالجانب الديني، وفي خضم فعل إعادة الربط هذا، يؤكد كولنيز على قدسية الانسان وعلى تركيبته المعقدة التي لا يمكن اختراقها من طرف العلم مهما بلغ تطوره، فمادة الانسان الوراثية والتي تعتبر البوابة الرئيسية التي من خلالها نلج لمعرفة بنيته، هي هندسة ربانية محفوفة بأسرار تفوق العقلية البشرية، وأن الامعان في هذه الصناعة الربانية ليست الا طريقا نعبّر به الى ضفة الايمان لا الالحاد، كان هذا العبور كفيلا لإعادة الاعتبار لتلك الضوابط الأخلاقية الميتافيزيقية النابعة من المصدر الالهي والتي تضبط كل ممارسة بيو طبية، التي لا تنفك أن تجعل من ميدان الطب وكل العلوم البيولوجية ميدانا مقيدا مرتهنا بكافة الالتزامات الخلقية، لا مجالا متحررا يلبي غريزة الانسان وصوته الخفي الذي لا يتوانى في جعل كافة المجالات راضخة لنزوعه المتسلط، يقول كولنيز في كتابه لغة الاله معبرا عن رفضه الصريح لخطاب الحداثة الذي قام على دحض وجود مبدأ أسى يعلو الذات الانسانية ويكون مرجعا أخلاقيا لها لا أن تكون هي المبدأ الذاتي الشامل لتصوراتنا حول العالم، "دعوني أتوقف هنا لأشير الى أن الاستنتاج الذي يقول أن القانون الأخلاقي يتعارض بشكل صارخ مع الفلسفة الحديثة التي تدعي أنه لا يوجد خير مطلق، أو شر مطلق وكل القرارات الأخلاقية نسبية. هذه القناعة التي تبدو منتشرة بين الفلاسفة المعاصرين والتي تعتبر خادعة لعامة الناس ستواجه سلسلة من الاشكالات المنطقية. اذا لم تكن هناك حقيقة مطلقة، فهل يمكن أن تكون فلسفة ما بعد الحداثة صحيحة؟ (...)، اذا كان لا يوجد شيء مطلق صحيح أو خاطئ فانه لا معنى لعلم الأخلاق من البداية"²⁰، يؤكد كولنيز من خلال وضع جل التوجهات المعاصرة التي لا تؤمن بالمطلقيات والثوابت واليقينيات تحت تساؤلاته الاستفهامية، على حقيقة مفادها، أنه اذا ما كان العالم الأنطولوجي خالي تماما من كل قرار مطلق سواء أكان قرارا خاطئا أم صحيحا، فان فعل الانتفاء هذا يؤدي الى فقدان كافة المعاني الأخلاقية سواء أكانت نسبية أم مطلقة للحياة البشرية، فكل مطلق يتبعه فعل نفي ويضبطه يؤدي بالحياة الى سكة الفوضى العارمة والاستغراق في أزمات فقدان كافة المعاني الأخلاقية وتعابيرها القيمية، وبالتالي لا بد من إعادة الاعتبار للجانب المطلق

الذي تعزى اليه كل جوانب حياتنا، وكافة الأساليب والممارسات البشرية، فهو الجانب الوحيد الذي يمنح الحياة معنى أخلاقي ويؤطرها قيما وينظمها على كافة المستويات التاريخية والاجتماعية والسياسية، ومن دون الايمان بهذا الجانب الديني ستظل الحياة البشرية مشتتة متضاربة متصارعة لا تحتكم في سيرورتها لأي اعتبار مطلق، يرى كولنيز انه ثمة "قوة تتحكم بالكون من الخارج، وان هذه القوة لا يمكن أن تظهر ذاتها كأحد حقائق هذا الكون (...) هذا الاله اذا كنت قد أدركته حقا يجب أن يكون اله الايمان (...). هناك تبعات أخرى للشعور بوجود اله (...) الحكم وفقا لمعايير العالية للقانون الأخلاقي، تقتضي وجود اله مقدس وخير، ولا بد لهذا الاله أن يجسد الخير وأن يمقت الشر"²¹ وبالتالي فان للكون أسرار الكوسمولوجية وأبرز هذه الأسرار تلك التي يجسدها المبدأ الكلي الشامل للوجود، أي الاله الذي يعتري كل الموجودات، وهو مبدأ مجرد لا تدركه الأبصار ولكنه يدرك الأبصار، والبوابة الرئيسية لمعرفة هذا الاله والايمان به هو طريق التأمل العلمي في الموجودات الانطولوجية خاصة منها الكائن الحيوي، هذا الأخير الذي عنيت بدراسته المجالات البيوطبية المعاصرة، فكلما تعمقنا أكثر في فهم بنية الانسان علميا كلما قادنا هذا الفهم والبحث العلمي الى اكتشاف نظام كوني في غاية الدقة هو المسؤول عن خلق هذه البنية البشرية متقنة الصنع، والتي لا يمكن اختراقها مهما بلغ تطور البيوتقنيات المعاصرة، ودراساتها الحثيثة لجعل هندسة الانسان الوراثية مجرد طريق عبور نحو مستقبل لا انساني، وبالتالي يعتبر طريق العلم حسب كولنيز لا بوابة الاتحاد واستبعاد العنصر الديني عن طريق تقدم العلم، بل بوابة الايمان باله مطلق الوجود وعنه تنبثق كل الاعتبارات الاخلاقية الخيرة التي تؤطر عالمنا وتقوم سيرورته وتنظم معانيه الأنطولوجية وفقا لمبادئ قيمة ثابتة، فالأبحاث العلمية التطبيقية على الكائنات الحيوية وعلى رأسها الهندسة الوراثية - باعتبارها ذروة التطور البيو تقني- للانسان باعتبارها الخارطة التي تحدد هويته وتثبتها، ليست الا بصيرة تنكشف عن طريقها كنه مصدر دقيق الصنع ومحكم التنظيم، هو المسؤول عن خلق هذه البنية التي لا تقبل أي تعديل أو تغير،- فهي بنية في غاية النظام لا بناء فوضوي أو اعتباطي من صنع الطبيعة-، نظرا للأخطار المحتدمة التي قد يؤدي اليها فعل التعديل والتحويل الطبي، وبالتالي تؤكد لنا هندسة الانسان الوراثية بالغة الدقة من خلال رفضها وعدم قابليتها لأي امكانية للتعديل الجينومي عن أسرار الالهية لا يمكن خرقها بتاتا....

2.4. اختناق الروح البروميثيوسية في مسارات النزعة التكنولوجية "غونثر أندرس" و"ايفان ايليتش"

أولا. الاستغراق في النزوع التقدمي للتكنولوجيا عبث أنطولوجي بواقعية الانسان

قبل الخوض في غمار أبرز أفكار الفيلسوفين المعاصرين، "غونثر أندرس" و"إيفان إيليتش"، على اعتبارهما أبرز مفكرين وجها سهام النقد اللاذع للزوع التكنولوجي المعاصر، باعتباره واقعا سلب الحياة الانسانية قيمتها الأنطولوجية الحققة، كان لا بد علينا من ابراز العلاقة الوطيدة التي تجمع بين العقلية البروميثيوسية وبين مسارات النزعة التكنولوجية، فنحن نجد أن التعالق الجدلي الذي يربط كلاهما في خضم قراءتنا الفلسفية لراهنية المجتمعات الغربية المعاصرة، والتي شهدت تحولات جذرية مست أهم المستويات الكبرى للانسان سواء أكانت ابستمولوجية أو أنطولوجية أو سوسيولوجية، ونظرا لتبعنا لمآلاتها التي لم تجد غير التقنية مسكنا وجوديا لتستقر على ضفته الأداة، نجد أن العقلية البروميثيوسية وذلك نسبة للأسطورة اليونانية التي اتخذ منها الفكر الاخلاقي المعاصر مثالا حيا يجسد لنا مدى تطرفية النزعات المادية الغربية في صورتها الحديثة والمعاصرة، والتي نهجت نهج بروميثيوس على اعتباره السبيل الوحيد الذي يضمن للانسانية خلاصها البشري، من غياهب ظلمات الجهل، ذلك أن بروميثيوس قد أقدم على سرق النار من الآلهة على اعتبارها رمزا لنور العلم ولجذوة البصيرة من اجل انارة حياة البشر ولتحريرهم من ضعفهم واستكانتهم، بفعل نور العلم الذي يضمن لهم تحقيق فعل التقدم والتطور

ونحن لا نجانب الصواب ان اعتبرنا نار الأمس البعيد هي نور العلم الحديث اليوم، الذي لم يتوانى الانسان الغربي في جعله سيدا على الحياة البشرية والمقوم الأمثل الوحيد لتوجيه مسارها، فهو يشكل وفقا للمخيال الغربي الضمان الأنطولوجي لعنق الوجود الغربي من كافة العوائق والحواجز الخارجية التي تحول بين النزعة الانسانية الغربية وبين سعيها الدؤوم لمناشدة عالم لا ينفك خاضعا لا لارادة الانسان ذاته، ومما لا شك فيه أن الاداة الامثل لاحكام قبضة السيطرة على الطبيعة وحتى على الانسان ذاته، هو العلم الحديث، الا أن فعل الاستغراق هذا للنزعات الغربية في النزوع المادي والثقة العمياء في نتاجاته، أدى الى انتاج عتاد تقني جامع أفتك بالطبيعة وبقوانينها، بل وضع الانسان ذاته على محك طاحونة الوجود والعدم، ذلك أن الاستعمال المفرط للعلم الحديث أفقد الانسان بصيرته على كافة الأخطار المحتمدة التي من شأنها أن تدمي بواقع الانسان لا أن تنتشله من جهله، أبرز هذه المخاطر نجد على سبيل المثال المخاطر البيئية التي أدت الى تلوث عميق واضطرابات على مستوى الميدان البيئي نتيجة التجاوزات التقنية المفتعلة ضد البيئة واثار هذه المخاطر، برزت ايتيقا المسؤولية المطلقة ل"هانز جوناكس" تجاه الطبيعة، فاتيحا المسؤولية هي بمثابة اعادة بعث لأخلاقيات البيئة واحيائها من أجل تنميط الافعال الانسانية تجاهها، ذلك أنها ليست مجرد ميدان جامد قابل للتجريب العلمي، بل هي عبارة عن مجال يتمتع بمساحة كبيرة من

الاحترام، فهي جزء من ذواتنا، والمحافظة عليها هو حفاظ على نقاوة وجودنا، "يرى جوناس أن الوعود التي أعطتها العلم في حل مشاكل البشرية، وتقديم الأفضل قد باءت بالفشل، بل أصبحت لعنة تتطلب منا بعدا أخلاقيا (...) لأن العلم أنتج التقنية والتقنية استعملت للسيطرة على الانسان وتدمير الكوكب، مما حول هذه الآمال والوعود الى قبلة موقوتة تهدد البشرية"²²

يتبين لنا أن هذه التغيرات الجارفة التي اعترت مشاهد عالمنا أدت الى بروز نوع من القلب الأنطولوجي نتيجة شيوع وسائل الاعلام الى جانب بروز نموذج الذكاء الاصطناعي الذي يعتبر ذروة التطور التقني، تزامنا مع تسارع وتيرة النتائج المادية، وهيمنة كافة أساليبها التقنية التي أدت الى تحديث تعبير جديد للحياة، ما جعل من الآلة محل الانسان، ومن الوقائع الفرضية محل الواقع المعاش، كل هذه التغيرات الناتجة عن التطورات العلمية ادت الى تغير جذري طال كافة أسس الحياة الواقعية وأعادت تعريفها وفقا لنموذج الاليتيا على حد تعبير الفيلسوف الألماني "مارتن هيدجر"...

والذي قدم هو الآخر دراسة جد معمقة فيما يخص مسألة الوجود وتحت ظل التطورات التقنية، فمارتن هيدجر يعتبر من أبرز المفكرين الذين رسخوا دراسة فكرية دسمة عن الوجود على اعتباره الحقيقة المنسية من طرف الفكر الغربي نظرا لاستغراقه في انتاج التخوم الفكرية الميتافيزيقية التي تعلق عن الواقع الخارجي، ونسيانه الأصل الأول الذي قذف بكل التجارب الانسانية الى عالم التحقق والكينونة، والذي تنبجس عنه الحقيقة بوصفها كشافا أنطولوجيا أنيا لا مسبقا كما زعم التقليد الغربي الحديث، وفي خضم إعادة طرحه لمسألة الدواين شرع هيدجر في ترسيخ تمييز فاصل بين نمطين من الوجود، الوجود الحقيقي والوجود الزائف، الوجود الحقيقي هو ذلك الوجود الذي تبرع فيه الذات صناعة ذاتها بعيدا عن ضوضاء العالم، وفقا لغة ابداعية تحتضن كينونته وهي لغة شعرية بامتياز، هذه اللغة تظل رهان ابداع الذات مأسلة بها وجودها الحقيقي، أما عن الوجود الزائف هو ذلك الوجود المتكرر الباهت المألوف والذي ينتسب الى الغير أكثر من انتسابه الى ذاته، الى جانب ذلك نجده مرتهنا بالعتاد الاداتي الذي صنعه يداه، فكلمنا انتسب الانسان الى أشياءه المادية كلما اغترب عن هويته الحقيقة وأخفق في الحفاظ على كينونته الأصلية، التي لا تجد الا في اللغة الشعرية باعتبارها تفردا وتميزا وأصاله بيتا لمسكنها الأنطولوجي، وهو ما عبر عليه هيدجر في كتابه، اشكالية الوجود والتقنية بقوله: "...متى سلبت منه ولو قيمة انسانية واحدة من قيمه فهي تعد قناع، لأنها ستحد من مشروعيتها كوجود حر، والقناع الذي يرتديه الانسان الذي يتحكم بالتقنية

في تسيير هذا الوجود حتما، سيقع بالروح الانسانية المتأثرة فريسة للانهيهار النفسي أو للنزاع الاجتماعي، وهو ما حدث فعلا في أعقاب بداية الحربين التي عاشها هيدجر، لقد لبس الانسان قناع التقنية حتى يستر نفسه عن الحقيقة، وعندما يتأرجح النزاع تحل الذاتية الفردية الزائفة مكان الذاتية الحقيقية، ويحل القناع محل الوجه" ²³

يعتبر كل من المفكرين الفيلسوف الالماني "غونثر أندرس" (1902-1992)، والفيلسوف الكرواتي "ايغان ايليتش" (1926-2002)، من أبرز المفكرين الرافضين للنزعة السلطوية للتكنولوجيا، والرضوخ التام لرغباتها الجامحة من طرف الانسان، حيث دشّن غونثر أندرس نقدا لاذعا لها مع بداية العصر الحديث وكان الأشد رفضا لجهاز التلفزة، والذي استبصر فيه أول عتاد تقني عمد الى اغتيال الواقع الخارجي، من خلال اختزال علاقاتنا البشرية واقبالنا على بعضنا البعض في الحيز الواقعي، في مجرد تفاعلات تلفيزونية حلت محل التجربة الواقعية المعاشة، فيصبح المصطنع واقعا والواقع خيالا، وتحل بذلك هذه التفاعلات الالكترونية مثلما ذهب الى ذلك المفكر "جان بودريار" محل علاقاتنا الانسانية الشفافة، وينقلب بذلك الواقع المعاش الى مجرد وجود الكتروني مفرغ من كافة المعاني الانسانية الحققة، فيحول بذلك الواقع فرضا، وتصبح التجارب الحياتية مختصرة في مجرد شاشة تحركها برمجيات الكترونية تصبح هي الأصل الذي يسير حياتنا، لتبنى وفقا لذلك أسس الكترونية جديدة فائقة للواقع الحقيقي، فيخدر بهذه الاختراعات التكنولوجية المبتكرة جسد المجتمع الحقيقي، ويطلق العنان فيه لعناصر الوهم والغواية، هذه الأوهام التي فرضه علينا العتاد التكنولوجي اليوم هي التجارب الأجدر بأن تعاش وفقا لمنطق التطور التكنولوجي، ما يحول بين الانسان وبين تعامله المباشر مع العالم، تعتبر هذه الوسائط التقنية نوعا من احداث القلب في مفاهيمنا الثابتة حول الواقع الأنطولوجي وكل ما يحويه من ثوابت سواء أعلق الأمر بالكينونة البشرية، او بتعبيراته الأخلاقية.

فأن يرتاد العتاد التقني مشاهد العالم اليوم فذلك يوجي الى تغير تام في نظمنا الوجودية، لقد أصبحت الالة هي المتحكممة في قراراتنا لا نحن المتحكمين فيها، وفي ذلك يرى أندرس أن سطوة التكنولوجيا اليوم قد أدت الى ازاحة التعابير الأخلاقية التي كانت من المفترض أن تقوم كل سلوك أداتي خارج عن المؤلف أو بات يشكل خطرا يهدد المنظومة البشرية، يستعين غونثر أندرس في ترجمته لهذه النزعة السلطوية للتكنولوجيا المجردة من كافة المحظورات بقصة دوغلاس ماك آرثر "الذي كان قائد الأمم المتحدة في الحرب الكورية،

قام ماك آرثر بإدخال البيانات إلى جهاز كمبيوتر من أجل حساب ما إذا كان ينبغي للولايات المتحدة أن تفعل ذلك التدخل في كوريا أم لا. كما هو الحال مع جميع أجهزة الكمبيوتر المستخدمة لأسباب آلية، فإنه تم تغذية الجهاز حصريًا، بنوع البيانات التي لم تقدم أي مقاومة لها، القياس الكمي لا يمكن للبيانات والحوسبة أن تجعل الأمور أخلاقية الأحكام لأن البشر وحدهم لديهم القدرات الأخلاقية، (...) تم تخفيض إبادة الأرواح البشرية أو تدمير البلدان إلى أرقام الريح أو الخسارة- تم تقليص الصفات الأخلاقية إلى كميات قابلة للحساب، لقد ترك القرار الرئيسي بشأن الحياة والموت للآلة²⁴ فأن يصبح الإنسان مجرد حساب وعد كمي يقاس ببيانيا من طرف أجهزة آلية الكترونية، مجرد من كافة المعاني الروحية، وخالي من كل معاييرها الكيفية، فذاك ما يضع الانسانية جمعاء على محك الهلاك المستدام، ويضع نوعه البشري تحت طاحونة العدم التي تبتلع الأرواح البشرية وتجتر طبيعته الانسانية وكأنها وجود جرثومي لا طائل من وجوده، يعتبر هذا التعامل اللاأخلاقي والالانساني بل الوحشي مع النوع البشري، الجانب المظلم لسطوة التكنولوجيا اليوم.

ثانيا. سطوة التكنولوجيا اختناق صريح للانسانية

أما عن "إيفان إيليتش" فهو يستعين بالأسطورة اليونانية المتعلقة "ببروميثيوس" باعتبارها الأسطورة الأبلغ في تجسيد تأزمات الوضع التكنولوجي المعاصر الذي اختنق في أوردته الانسانية الأمل بدلا من تحريره من أعباء وظلمات الحياة، وبروميثيوس الذي سعى جاهدا لانارة حياة أخيه "ابيميثيوس" والذي كان يعتبر أقل ذكاء وأكثر تغافلا وجهلا، من خلال سرقة للنار من الآلهة وأهدائها له، باعتبار أن تلك النار تحتل مكانة المعرفة الحققة وبصيص الضوء الذي من شأنه انارة حياة البشر وتحريرهم من كنف جلمهم وضعفهم، لبلوغ حياة أكثر استنارة وتقدما وقوة، أصبح نموذجا حيا يترجم لنا مدى عمق التأزمات الراهنية التي باتت تأرق الهم الأنطولوجي وتشغل فكره، وبالتالي لا ضير اذن ان اعتبرنا نار الأمس التي تم سرقتها هي اسهامات التقدم التكنولوجي اليوم، فتلك النار التي اعتبرت نورا تضيء حياة البشر في الماضي انقلبت في

اللحظة الراهنة تحت ظل تطرف هذا النزوع التكنولوجي المعاصر الى لهيب احتترقت ضمن ألسنته الأداتية أوأصر العلاقات الانسانية وهوت بمعاييرها الخلقية الى عمى مروع.

تم خنق الروح الانسانية ببراعة بفعل اختمار الأزمات في النزوع التكنولوجي المعاصر الذي نحا حذو العقلية البروميثيوسية، والتي ادعت اليقظة العلمية والصحوه التطورية، لكن لم تكن هذه الفطنة العلمية وحدها كافية لانارة عتمة العالم الانساني، ولخرق ضوءها العلمي مواطن جهلها وظلالها، بل كانت تفتقر الى الضابط المعياري الذي يضبط مسارها العقلاني ويضمن سيرها الانساني، لاحكام السيطرة على لهيب نارها، وبالتالي خلاص الجنس البشري من وحل هذه التأزمات التي خلفها التطور التكنولوجي يتمثل في اعادة اكتشاف قوة بروميثيوس باعتباره قوة أخلاقية واجتماعية ومعيارية لا قوة علمية متحررة الضوابط، يرى ايفان ايلييتش أن الافراط في انتاج صناعي متنامي لا يعرف الاستقرار ولا الركون يشكل أحد أزمات الطاقة اليوم ويولد الانفجار، " أصبح من المحتم الحديث عن أزمة الطاقة التي تهددنا. هذا التعبير الملطف يخفي واحدا من التناقضات ويكرس الوهم، هو يخفي ذلك التناقض المتأصل في الرغبة في تحقيق كليهما دولة اجتماعية، تقوم على العدالة ومستوى متزايد باستمرار نمو صناعي مرتفع، إنه يكرس الوهم بأن يمكن للآلة أن تحل محل الإنسان تمامًا، ما يؤدي بهذا التناقض وكشف هذا الوهم الى ضرورة إعادة النظر في الواقع الذي تخفيه الرثاءات حول الأزمة: في الواقع، فإن استخدام كميات الطاقة العالية له آثار مدمرة للبنية الاجتماعية كما هي مدمرة للبيئة الفيزيائية، إن مثل هذا الاستخدام للطاقة ينتهك المجتمع ويدمر طبيعته"²⁵ ...

4. الخاتمة

نستشف في نهاية بحثنا هذا الى الارساء على جملة من الركائز الأساسية المستخلصة أهمها :
ان ريادة النزعة التكنولوجية عالمنا الأنطولوجي اليوم، والاحتكام فقط لمنطق صناعاتها الآلية، وعتاها التقني بغية تخليص الانسان من ضعفه، واستنارة حياته بوهج الأبحاث العلمية المستدامة، كضمان علموي وحيد لمجابهة تحديات العصر، انما هو ضرب من ضروب العبث بوجودية الانسان، فمصير الانسان ومستقبله وصيرورته لا بد وأن يظل مرتهنا بمنظومة الانسان الخلقية وبضميره المثقل بالمحظورات، لا أن تصبح البشرية دمي آلية تحركها الأداتية، وتسيرها سطوة أبحاثها العلمية المتطرفة،

التي لا تخفي رغبتها مطلقا في فرض سيطرتها على كافة الميادين خاصة منها المجال الحيوي، حتى وان لزم الامر في وضع الانسان ضمن واقع لا يمد له بصلة.

واقع مفترض مصطنع مخدر بالأوهام يتم فيه فعل اعادة تعريف الانسان تعريفا اعتباريا جاحدا بهويته التي لم تعد تشهد تلك الأصالة والتجذر الهوي المعهود، وباعادة تعريف الانسان يتم اعادة تعريف كافة نظمه الأنطولوجية وفقا لنموذج تكنو تقني، لا يعرف حقيقة ثابتة الا فعل الزوال المتجدد، لذلك كان فعل اعادة النظر في فعل تحوير العالم وأسسها، هما يطيقيا لا بد منه، لما له من مخاطر محتدمة تؤدي الى تمزيق هوية الانسان والى محو ملامح وجوده، وبالتالي لا بد من احياء الرهانات الاخلاقية والقيمية لمسارات النزعة التكنولوجية التي انحدر في مسارها التطرفي الأمل، واختنق في عقليتها البروميثيوسية الوعد بتبشير دولة علمية مستنارة، لذلك يظل الأمل الوحيد الذي يجعلنا نساير تطوراتنا التكنولوجي أخلاقيا هو اعادة اكتشاف قوة بروميثيوس –العقلية العلمية المتطرفة- باعتبارها قوة اجتماعية وأخلاقية ومعيارية تؤطر النهج العلمي وتقوم مساره التطرفي

5.الهوامش:

1. صليبيا جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية. دار الكتاب اللبناني للنشر، بيروت، ج2، دط، 1982، ص333
2. م.روزينثال، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، دط، ص 139
3. المحمداوي علي عبود، موسوعة الأبحاث الفلسفية الفلسفة الغربية المعاصرة صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة الى التشفير المزدوج، دار الامان للنشر، الرباط، 2013، ج2، ط1، ص 1526
- 4.Sloterdijk Peter , Rules for the Human Zoo. A Response to the Letter on Humanism, de Heidegger, traduction Olivier Mannoni, paris, sans édition, 2000.p05
- 5.Ibid., p. 5
6. المحمداوي علي عبود، موسوعة الأبحاث الفلسفية الفلسفة الغربية المعاصرة صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة الى التشفير المزدوج، دار الامان للنشر، الرباط، 2013، ج2، ط1، ص ص 1532، 1533
7. المرجع نفسه، ص1535
8. بريدوتي روزي، ما بعد الانسان، تر: حنان عبد المحسن مظفر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2021، ص ص 71، 72
9. المرجع نفسه، ص 72
10. المرجع نفسه، ص 75
11. المرجع نفسه، ص 81
12. عثمان صلاح، البارونية والانسان النظري نظرية التطور من العلم الى العولمة، منشأة المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 2001م، ص 213
13. الكسيس كاريل، الانسان ذلك المجهول، تر: عادل شفيق، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 2019م ص ص 211، 212
14. روزينلات روجر، ثقافة الاستهلاك الاستهلاك والحضارة والسعي وراء السعادة، تر: ليلى عبد الرزاق، المركز القومي للنشر، القاهرة، 2011.دط، ص 51
15. فرانسوا جاكوب وآخرون، الانسان في محب التقنية من الانسان الى ما بعده، تر: محمد أسليم، مطبعة بلال للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2019م، ص ص 281، 282

16. أبي عاد رندی، بروميثيوس مختصراً تساؤلات أنطولوجية عن الإنسان في المحيط التكنولوجي المعاصر، مجلة جامعة المعارف، جامعة الروح القدس الكسليك لبنان، العدد 08.2021، ص 10
17. بودريار جان، المصطنع والاصطناع، تر: جوزيف عبد الله، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 2008، ص 15
18. فوكو ياما فرانسيس، نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية، تر: أحمد مستجير، دار سطور للنشر والتوزيع، Farrar Straus and Giroux، د.ط، 2002م، ص ص 103، 104
19. المرجع نفسه، ص 188
20. كولنيز فرانسيس، لغة الآله، تر: صلاح الفضلي، دار مكتبة الكويت الوطنية للنشر، الكويت، ط 1، 2016م، ص 33
21. المرجع نفسه، ص ص 38، 39
22. محمودي خليفة، اتقاء المسؤولية اتجاه البيئة من منظور هانز جوناكس، مجلة سلسلة الأنوار، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد، الجزائر، المجلد 11، العدد 2، 2021، ص 22
23. هيدجر مارتن، اشكالية الوجود والتقنية عند مارتن هيدجر، تر: ابراهيم أحمد، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006، ص 23.

24. Günther Anders, ' Undiscovered Critical Theory of Technology in the Age of Big Data Capitalism, Date of Publication: 12 June 2017, posted on Flickr as CC by acido nucleio, <https://www.flickr.com/photos/guntheranders/4248063814>, Browsing date 02-08-2025, p04

25. Illich Ivan Options fondamentales pour une société de bas profil énergétique, Traduit de l'anglais par Jean Robert. Publié dans la revue Esprit., enu au Colegio de Mexico en juillet 1983 Illich Ivan Options fondamentales pour une société de bas profil énergétique, Traduit de l'anglais par Jean Robert. Publié dans la revue Esprit., enu au Colegio de Mexico en juillet 1983, p02

• المصادر والمراجع:

1. الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، تر: عادل شفيق، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، 2019 م.
2. بريدوتي روزي، ما بعد الإنسان، تر: حنان عبد المحسن مظفر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 2021م.
3. روزنبلات روجر، ثقافة الاستهلاك والاستهلاك والحضارة والسعي وراء السعادة، تر: ليلى عبد الرزاق، المركز القومي للنشر، القاهرة، د.ط، 2011م
4. فوكو ياما فرانسيس، نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية، تر: أحمد مستجير، دار سطور للنشر والتوزيع، Farrar Straus and Giroux، د.ط، 2002م
5. كولنيز فرانسيس، لغة الآله، تر: صلاح الفضلي، دار مكتبة الكويت الوطنية للنشر، الكويت، ط 1، 2016 م.
6. فرانسوا جاكوب وآخرون، الإنسان في محب التقنية من الإنسان إلى ما بعده، تر: محمد أسلم، مطبعة بلال للنشر والتوزيع، السعودية، ط 1، 2019م.
7. Sloterdijk Peter , Rules for the Human Zoo. A Response to the Letter on Humanism, de Heidegger, traduction Olivier Mannoni, paris, sans édition, 2000.

المراجع

1. عثمان صلاح، البارونية والإنسان النظري نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2001م.
2. المحمداوي علي عبود، موسوعة الأبحاث الفلسفية الغربية المعاصرة صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج، دار الامان للنشر، الرباط، ج 2، ط 1، 2013.
3. صليبا جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني للنشر، بيروت، ج 2، د.ط، 1982م
4. م. روزنباتل، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.س.
5. بودريار جان، المصطنع والاصطناع، تر: جوزيف عبد الله، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 2008.
6. هيدجر مارتن، اشكالية الوجود والتقنية عند مارتن هيدجر، تر: ابراهيم أحمد، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006.

• المقالات:

1. أبي عاد رندى، بروميشوس مختصرا تساؤلات أنطولوجية عن الانسان في المحيط التكنولوجي المعاصر، مجلة جامعة المعارف، جامعة الروح القدس الكسليك لبنان، العدد08، 2021
2. محمودي خليفة، اتيقا المسؤولية اتجاه البيئة من منظور هانز جونس، مجلة سلسلة الأنوار، جامعة وهران2 محمد بن أحمد، الجزائر، المجلد11، العدد2، 2021
3. Illich Ivan Options fondamentales pour une société de bas profil énergétique, Traduit de l'anglais par Jean Robert. Publié dans la revue Esprit, enu au Colegio de Mexico en juillet 1983.

• مواقع الانترنت:

1. Günther Anders,' Undiscovered Critical Theory of Technology in the Age of Big Data Capitalism, Date of Publication: 12 June 2017, posted on Flickr as CC by acido nucleio, <https://www.flickr.com/photos/guntheranders/4248063814>, Browsing date 02-08-2025)